

الوضعية الديمغرافية بفاس

خلال وباء 1799/1213

محمد منفعة

كلية الآداب - وجدة -

Mohamed Menfaa

La situation démographique à Fès pendant l'épidémie de 1799.

Résumé :

La situation démographique à Fès lors de l'épidémie de 1799. Cette intervention se penche sur l'étude de la peste de 1799 à Fès : ses causes, sa durée, ses effets et les mesures de prévention par les autorités.

The Fès demographic situation during the 1799 epidemic

Abstract :

The present paper is concerned with the study of the 1799 plague in Fès, its causes, duration, effects and the prevention measures adopted by the authorities.

الوضعية الديمغرافية بفاس خلال وباء 1213 / 1799

مقدمة:

لقد درج بعض المفكرين والمؤرخين على القول بأن دراسة الوضعية الديمغرافية كميا سهلة جدا في القرون الحديثة، بسبب وفرة المادة والإحصائيات سواء من الباحثين الوطنيين أو الأجانب، في حين يصعب ضبط الساكنة كميا في الفترات القديمة وما قبل الحديثة، لقلة الاهتمام بالجانب الكمي، علاوة على غياب الإحصائيات في المصادر المتعلقة بالوضع الاجتماعي والاقتصادي بالمغرب الأقصى على الخصوص.

إن هذا الطرح له ما يؤكد في جانب، لكنه غير صحيح في الجانب المتعلق بسهولة دراسة الوضعية الديمغرافية كميا في القرون الحديثة لأن الإحصائيات حتى إن وجدت لا تعدو كونها مجرد تخمينات أو مقاربات إحصائية، يصعب التأكد من صحتها لكثرة ما ينتابها من تناقضات واختلافات حتى لدى الباحث الواحد.

ومثالا على هذه الصعوبة نجد تقريرا يقدم العدد 60.000 نسمة لسكانة فاس سنة 1803⁽¹⁾ بعد حلول أحد الأوبئة بها، بينما ورد في تقرير آخر العدد 80.000⁽²⁾، كما نجد العدد 38.000 نسمة عن نفس الفترة والسكانة⁽³⁾. وليس هذا المثال هو الوحيد، بل في كل فترة وفي كل وضعية يلتقي الباحث مع نفس الاختلاف، لذا فما يتوصل إليه الباحث من خلال المقارنة والتحليل والنقد لا يعكس بصورة قطعية الوضعية الحقيقية للسكانة في هذه الفترات الحديثة. ويعود هذا كله إلى عدم قيام الدولة بعمليات إحصائية للسكانة قبل القرن العشرين، وكذلك لاستمرارية اهتمام المؤرخين وكتاب المغرب بالجانب السياسي والترجمات للسلطين وللأسر المشهورة، دون الاهتمام بالجانب الاقتصادي اليومي إلا في القليل النادر.

لهذا تطرح دراسة السكانة إشكالات عدة، منها ما مدى صحة الإحصائيات المقدمة أو ما مدى بعدها عن المبالغات المفرطة أو المجحفة؟ ويظهر هذان الإشكالات في الموضوع الذي نريد معالجته حول «الوضعية الديمغرافية بفاس خلال وباء 1799»، هذا بالإضافة إلى إشكال ثالث في هذا الموضوع، وهو هل كان هذا الوباء في هذه السنة فعلا أو في سنة 1212 / 1798؟.

(1) **بداية الوباء:** تنتاب الباحث حيرة حينما يجد كاتب السلطان يؤرخ لهذا الوباء بسنة 1212 / 1798⁽⁴⁾، ويتبعه كاتب آخر وهو أكنسوس الذي يحدده بنفس التاريخ⁽⁵⁾، في حين يذهب الضعيف إلى أن بداية الوباء كانت سنة 1213 / 1799، وبالضبط يوم 10 رمضان⁽⁶⁾، لذا فالتساؤل المطروح على أي التاريخين يمكن التركيز؟

إذا رجعنا إلى « البستان الطريف » للزياني ، الذي يقول فيه : « وفي هذا العام ، (أي 1212 / 1798) دخل الوباء للمغرب وعم حواضره وبواديّه »⁽⁷⁾، نلاحظ عمومية هذا الخبر، دون أي تفصيل يمكن أن يزكي ما ذهب إليه، فضلا عن قوله بدخوله إلى المغرب، وهذا ما يجعل تأريخ الضعيف أدق، كما أن هناك مصدرا أجنبيا يؤكد التحديد الذي قدمه الضعيف، وهو القنصل الإنجليزي **Gray Jackson** ⁽⁸⁾. إن إشارة الزياني إلى الوباء وكذلك الضعيف، تتطلب معرفة نوع هذا الوباء.

(2) **نوع الوباء:** يلاحظ أن لفظ الوباء كثير الاستعمال لدى المؤرخين المغاربة وغيرهم من المسلمين، الأمر الذي جعل الباحثين الأجانب يدعون أن هؤلاء المؤرخين لا يفرقون بين الوباء والطاعون، وذلك لأنهم تارة يقولون « وباء » وتارة أخرى « طاعون »، كما هو الشأن بالنسبة للضعيف الذي وردت اللفظتان في كتابه إذ جاء في بداية الفقرة « وكان الوباء بفاس الجديد وقصبة اشراكة »⁽⁹⁾، وفي نهاية الفقرة « واشتد الطاعون في الناس »⁽¹⁰⁾.

إن هذا الجمع بين اللفظين ليس جهلا من الضعيف أو غيره من المؤرخين والفقهاء بنوع الداء، وإنما كان ذلك سيرا على نهج الأقدمين، بحيث كانوا يرون أن « كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا »⁽¹¹⁾. وهذا قول عياض الذي ورد فيه أن « أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعونا لشبهها بها في الهلاك »⁽¹²⁾.

إن هذا القول يوضح أنهم كانوا يميزون بين الطاعون والوباء، بل قد رجعوا إلى الأطباء ليتبينوا وجه الفرق بين الإثنين، ومن ذلك قول ابن سينا الذي فرق فيه بين الوباء والطاعون، فوضح أن الوباء هو « فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومدده، أما الطاعون فهو مادة سمية تحدث وربما قتالا يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلبها تكون تحت الإبط، أو خلف الأذن أو عند الأرنبة، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد يستحيل إلى جوهر سمي يفسد العضو ويغير ما يليه ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل

من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع واردة ما يقع على الأعضاء الرئيسية، والأسود منه قل من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر» (13).

بعدما بيننا الفرق بين الطاعون والوباء يظهر أن ما كان يعنيه الزباني والضعيف وأكنسوس هو الطاعون، ويتبين أنه لم يكن أسوداً، لأنه لو كان كذلك لما نجا منه أحد في مدينة فاس التي دام فيها مدة طويلة جداً. وبعد تبين نوع الوباء نتساءل: ما هو مصدر هذا الطاعون؟

(3) مصدر الطاعون: قد يدفع الاختلاف في تحديد تاريخ الطاعون إلى البحث في مصدره، وذلك لأن الزباني قال «وفي هذا العام دخل الوباء للمغرب» في حين قال الضعيف «وكان الوباء بفاس الجديد وقصة اشراكة» (14). فكلام الضعيف يوحي بأن الوباء داخلي، بينما يفهم من كلام الزباني أنه وارد من الخارج، إلا أن الضعيف يحدد الجهة، وهذا ما لانجده عند الزباني الذي أورد الخبر عاماً، ولم يحدد الجهة التي دخل منها، وبهذا يمكن القول بأن الوباء ظهر بفاس استناداً إلى بعض الأدلة التي من بينها:

- 1 - رسالتان من السلطان: الأولى إلى الفقيه محمد الزعري التي قرأها قبل ابتداء الخطبة، والثانية لأحمد اليموري، والتي قرأها الخطيب محمد الزعري بعدما انتهى من الخطبة (15).
- 2 - التحديد الذي قدمه الضعيف للمكان الذي ظهر فيه الطاعون وهو مدينة فاس.
- 3 - لم تكن الفترة موسماً لقدم الحجاج حتى يقال بأن الطاعون ورد من الحدود الجزائرية كما هو معهود، وربما هذا الاعتقاد بأن الحجاج حينما يقدمون من الديار المقدسة ينقلون الطاعون إلى الجهات التي مروا بها كان هو السبب فيما ذهب إليه الزباني وغيره (16).
- 4 - انتقال الطاعون من فاس إلى مكناس وسلا والرباط، ثم انتقاله إلى الجنوب عن طريق الجيش الذي خرج بقيادة عياد عتيق «يوم الأحد أول يوم من ذي القعدة عام 1213... من فاس الجديد إلى ناحية آسفي» (17).
- 5 - لا توجد أية إشارة إلى أن الحدود الجزائرية المغربية كان بها الطاعون قبل هذه السنة أو قبل ظهوره بفاس ولو بأيام قليلة حتى نتأكد من أنه دخل من هذه الحدود، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحدود الإسبانية.

يتضح إذن أن الطاعون ظهر بفاس يوم « السبت 10 رمضان المذكور قبل طلوع الشمس، فلما وصل (مولاي الطيب) ⁽¹⁸⁾ قبة السمن وجد جنازة خارجة على الباب الجديد أمامه الذي ابتناه عياد، فوقف حتى تخرج الجنازة والتفت وراءه فوجد جنازة أخرى فتطير من ذلك وتغير لونه، واشتد الطاعون في الناس ⁽¹⁹⁾ ».

بعد ما تبين أن الطاعون لم يدخل من خارج المغرب، نتساءل: ما هو سببه؟

4) سبب طاعون 1213: يظهر من خلال المصادر غياب ذكر السبب في هذا الطاعون إلا ما كان من رسالتي السلطان إلى الفقيه محمد الزعري كي ينبه ابن سودة الذي لم يسو بين القوي والضعيف، وكذلك استرعى على العدول على أن لا يشهدوا شهادة الزور. والرسالة الثانية التي لأحمد اليموري تطلب منه أن « ينهي أهل فاس من اشتغالهم بالرقى وأن يوجه إلى السلطان كل من ظهر فيه من الرجال والنساء ⁽²¹⁾ ».

يتضح من هاتين الرسالتين أن السلطان اعتقد أن الوباء الذي أحل بأهل فاس كان سببه المنكرات التي وقعت فيهم وشرها الظلم بين الناس حتى إن قاضي فاس لم يعد يسوي بين الضعيف والقوي، وكان هذا الاعتقاد ناتجا عن إشارة بعض الأحاديث النبوية إلى الطاعون رجس أو عذاب من الله على الأمم السابقة ⁽²²⁾.

إن هذه الإشارة من السلطة المركزية إلى أن الطاعون عذاب من الله حل بالقوم الذين أباحوا المنكرات، تدفع إلى طرح التساؤل التالي: ما الإجراءات المتبعة من السلطة للحد من انتشار الطاعون؟

5) إجراءات السلطة: لا تذكر المصادر المغربية أية إجراءات للحد من انتشار الطاعون بين الناس، إلا ماورد عن الرسالتين السالفتي الذكر، وذلك بعد مرور أربعة عشر يوما ⁽²³⁾ على ظهور الطاعون في الناس. وقد ورد عند الضعيف أن السلطان أمر الجند للخروج من فاس الجديد يوم 13 ذي القعدة عام 1213 قصد القيام بحركة إلى ناحية آسفي ⁽²⁴⁾، مع العلم أنه يعلم بنهي الأحاديث النبوية عن خروج الإنسان من البلد المطعون أو الدخول إليه ⁽²⁵⁾.

إذن كان بالإمكان أن ترجى السلطة هذه الحملة إلى وقت آخر، حتى لا تنتقل العدوى إلى المناطق غير المطعونة، هذا فضلا عن فقدان المستشفيات أو حتى إن وجد بعضها، فإنه لم تكن له فاعلية في الحد من انتشار الطاعون بسبب عدم اكتشاف الدواء الصالح ضد هذا الوباء في هذه الفترة. أما فيما يخص الحجر الصحي، فقد طالب القناصل السلطان بجعل السفن الواردة إلى طنجة تخضع لهذا الحجر خاصة في هذه الفترة فلم يمانع⁽²⁶⁾، وكذلك شمل هذا الطلب في 22 يوليو 1797 الأراضي الحدودية⁽²⁷⁾. إلا أنه لم يخضع المسافرين للحجر الصحي إلا بعد وباء 1818، لأنه كان يرى أن ما قدره الله لا يمكن منعه⁽²⁸⁾، فضلا على إيمانه بأنه «من غير الممكن الاحتراس من الدول المجاورة تريبا»⁽²⁹⁾، ولا ندري ما هو السبب في عدم قدرة السلطة على ضبط مناطق الحدود؟ هل السبب في ذلك هو عدم ضبط المسافرين لأن الجهة الحدودية غير مضبوطة أم مرد ذلك إلى عدم الرغبة في خلق مشاكل مع الدول المجاورة؟ ربما يكون السبب الأول هو الدافع وراء عدم إمكانية الاحتراس من الدول المجاورة.

إذن يتضح مما سبق أن الإجراءات ضد الأوبئة والطاعون كانت منعدمة تقريبا، مع العلم أن الشريعة أمرت باتخاذ الأسباب. ونظرا لانعدام الوقاية والإجراءات الضرورية يستغرق الوباء مدة طويلة في بعض الأحيان، وكذلك ينتشر انتشارا كبيرا يؤدي إلى الوفيات بالعشرات بل بالآلاف. قد يدفع هذا إلى التساؤل التالي: كم استغرقت مدة الطاعون في هذه الفترة؟.

6) المدى الزمني لطاعون 1799: لقد استغرق هذا الطاعون بفاس مدة زمنية طويلة اختلفت المصادر في تحديدها بحيث أن الزباني الذي أرخ للطاعون بسنة 1212 يجعل بداية 1213 نهاية له، وتبعه أكنسوس في ذلك، لكن الضعيف الذي أرخ له ب 10 رمضان من سنة 1213 لا يقدم لنا نهاية الوباء. لذا فمعرفة نهاية الوباء صعبة جدا، لكن بالاستئناس ببعض الإشارات الواردة في هذه المصادر، يمكن التوصل إلى معرفة نهايته، ومن ذلك ما قاله الزباني بأن السلطان أرسله إلى مراکش ليأتيه بمختلف إخوته الأمراء والكاتب محمد بن عثمان⁽³⁰⁾، وكان آخر الأمراء مولاي الطيب الذي بعث بذخائر أخيه مولاي هشام، وفتح صناديقه وأخذ ما فيها من الحلي فضرِب بالوباء⁽³¹⁾.

لقد وقع هذا حسب الضعيف بعد 22 صفر 1214⁽³²⁾. إثر هذا التاريخ أرسل من مكناس للزياني الذي كان بفاس ليلتحق به، ولن يتم هذا إلا بعد ثلاثة أيام على الأقل، أي أن الالتحاق وسماع الخبر تما في بداية شهر ربيع الأول، وبعد ذلك، الانتقال إلى مراكش والرجوع منها إلى فاس لن يتم في أقل من شهر، لذا يمكن تحديد الرجوع إلى فاس في ربيع الثاني 1214، غير أن هناك إشارة من الضعيف إلى وفاة القائد الغازي السكيري بالطاعون في 17 رجب⁽³³⁾، إلا أننا لا ندرى هل طعن بفاس أم بمكناس؟ وإذا قبلنا هذا التحديد وهو شهر ربيع الثاني تكون المدة التي استغرقها الوباء ستة أشهر، وهذا يعني أن ضحايا هذا الطاعون كانوا بالمئات إن لم نقل بالآلاف، لهذا سنضطر إلى معرفة الكمية العددية للوفيات في النقطة التالية:

7 عدد الوفيات: سبق أن أشرنا في المقدمة إلى أن الإحصائيات من المسائل شبه المفقودة في الكتابات المغربية، لهذا من الصعوبة التخمين بعدد الوفيات من خلال قول عام مثل الذي أورده الضعيف «وكثر الوباء بفاس وفي تلك النواحي، حتى مات من الخلق ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى»⁽³⁴⁾. لكن بالرجوع إلى كتابات الأجانب يمكن التوصل إلى بعض الإحصائيات التقريبية، ومن ذلك ما أورده الجاسوس علي باي العباسي⁽³⁵⁾ بأن عدد سكان فاس بعد الوباء كان 60.000 نسمة⁽³⁶⁾، ونصف السكان قضى عليه الطاعون⁽³⁷⁾.

إن قوله «ونصف السكان قضى عليه الطاعون» يوضح لنا فعلا هول هذا الطاعون، بحيث أن ستين ألف نسمة قضى عليها الطاعون في هذه المدة، عدد ليس بالهين، إلا أن السؤال المطروح: هو هل فعلا قضى الطاعون على ستين ألف من ساكنة فاس؟

إذا كان عدد ساكنة فاس وناحيتها يتجاوز المائة ألف، أو أن فاس وحدها يتجاوز عدد ساكنتها مئة ألف قبل الوباء، فالعدد منطقي لعامل المدة الزمنية التي استغرقها الطاعون بفاس، لكن إذا كان عدد ساكنة فاس قبل الوباء أقل من مئة ألف، فالعدد مبالغ فيه شيئا ما، إلا أنه من خلال إحصاء آخر قدمه القبطان الفرنسي بوريل Burel الذي أرسله نابليون إلى المغرب سنة 1808 وهو 80.000 نسمة⁽³⁸⁾ لساكنة فاس وحدها، يتبين أن العدد الذي قدمه علي باي لسنة 1803 غير مبالغ فيه كثيرا، هذا إذا ما قبلنا بأن عدد السكان كان يتجاوز مئة ألف نسمة، أما إذا كان يتجاوزها بكثير مثل العدد الذي أورده جاكسون Jackson وهو 380.000 نسمة⁽³⁹⁾، فهنا يظهر أن العدد الذي

قدمه علي باي هزيل جدا، لكنه مقبول بالنسبة للوفيات كعدد تقريبي.

إذن يتضح مما سبق أن الوفيات في هذا الطاعون كانت بالآلاف وليس بالمئات، بحيث كما ذهب إلى ذلك الضعيف «خلت المدارس ومات الجل من فقهاء مكناس وفاس وغيرهم، فلما ضاق الحال بالناس، صار فاس لا يدخله أحد من حوزة، ولا من غيره»⁽⁴⁰⁾. وبسبب هذه الوضعية المتأزمة، أصبحت فاس قاعا صفصفا، لذلك قدر علي باي العدد في 60.000 نسمة، وبعد ذلك بدأ الفارون من الطاعون يرجعون إليها لما ارتفع عنها، وبذلك استرجعت فاس ما كانت عليه في السابق.

استنتاج: إن ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة للأوبئة والمجاعات التي كانت تفتاح المغرب هو عدم اتخاذ السلطة والسكان بالأسباب الضرورية، وذلك لسببين:

– حالة التخلف أو التأخر التي عرفها المغرب في الفترات الزمنية الأخيرة قبل القرنين 18 و 19.

– حالة التواكل وليس التوكل على الله.

الهوامش

1 - Ali bey; viajes por Morruecos, p. 201.

2 - Jacque Caillé; la mission du capitaine Burel au Maroc, 1808, p. 93.

3 - انظر التعليق الذي قام به سالفا دور بارير على الرقم الذي قدمه علي باي العباسي في كتابه

Viajes por Morruecos, p. 201

4 - الزباني. البستان الطريف، ص. 180.

5 - الجيش العرمم . ص. 189.

6 - تاريخ الدولة السعيدة. ص. 314.

7 - نفس المصدر، ص. 180.

Voir Dr Renauld P. J; "La peste de 1818 d'après les documents inédits, in Hesperis, -8

1923, T.III, 1^{er} trimestre, p. 13.

9 - تاريخ الضعيف . ص. 314.

10 - نفسه

11- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري . ج. 10، ص. 180.

12 - نفس المصدر والصفحة.

13 - نفسه

14 - المصدر السابق، ص. 314.

15 - نفس المصدر والصفحة

16 - Voir Dr. Renauld; op.cit, p. 14.

17 - الضعيف . مصدر سابق، ص. 314.

18 - هو أخو السلطان مولاي سليمان الذي تولى الحكم بعد أخيه اليزيد من سنة 1722 إلى سنة 1822، وتنازل عن

الحكم لابن أخيه عبد الرحمن هشام.

19 - الضعيف. مصدر سابق، ص. 314.

20 - نفسه

21 - نفسه

22 - أورد ابن حجر أن أسامة بن زيد قال، قال رسول الله ﷺ «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل،

أو على من كان قبلهم » . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، 102، ص. 183.

- 23 - قراءة الرسالتين على منبر القرويين يوم 24 رمضان، انظر الضعيف، م. س. ص. 314.
- 24 - نفسه
- 25 - ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منه»: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب 30، حديث 5728.
- 26 - Rosenberger, Calamité, sécurité, pouvoir, le cas du Maroc 12 - 16 siècles, Revue de la Méditerranée. p. 252.
- 27 - Renauld P. J. "Lapeste de 1818 d'après de documents inédits. Hesp. Tome III, 1er trimestre, 1923, p. 16.
- 28 - Renouard; op. cit., p. 34.
- 29 - انظر المذكرة الملكية التي أوردها Renauld في المرجع السابق، ص. 34.
- 30 - انظر، المصدر السابق، ص. 180.
- 31 - الضعيف، مصدر سابق. ص. 316.
- 32 - تاريخ الضعيف. ص: 316.
- 33 - نفس المصدر. ص. 317.
- 34 - مصدر سابق ص. 314.
- 35 - هو الجاسوس الإسباني باديا إي ليليك، الذي طرح على الحكومة الإسبانية فكرة القدوم إلى المغرب في مغامرة سياسية تقضي باحتلال بعض المدن، وكان ذلك سنة 1801، وقام بالترتيبات في هذا الشأن ووصل إلى المغرب سنة 1803، وطرد من المغرب سنة 1805، لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد منقعة: زيارة علي باي العباسي لمدينة وجدة. مجلة كلية الآداب، وجدة، 1992.
- 36 - 37 - Voir Ali bey; viajes par Morrecos, p. 201.
- 38 - Voir Jacques Caillé; la mission du capitaine Burel au Maroc, p. 93.
- 39 - Ali Bey; op. cit., note 5, p. 201.
- 40 - مصدر سابق. ص. 315.

